

سورة الكهف (الآيات: 102 - 105)

26

٢٦

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف الجزاء الذي أعدّه الله لأوليائه المؤمنين.
- 2- أن أستعد للقاء الله بالإيمان الصادق والعمل الصالح.
- 3- أن أتمثل سعة كلمات الله من خلال المثال الذي ضربه الله في الآيات.

تمهيد

انتقلت الآيات في ختام هذه السورة للحديث عما أعد الله لأوليائه المؤمنين، لتختتم السورة بأمرين موجهين للنبي ﷺ ليبليغ للناس فحواهما، الأول يتعلق بكلمات الله، والثاني بالرسول ﷺ ومهمته. وتختتم برسم سبيل النجاة لمن يريد لقاء الله والفوز برضوانه.

فما الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين؟ وما صفاته؟ وما هي صفة كلمات الله تعالى؟
وبم يستعد المؤمن للقاء ربه؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَيْرَ إِمْنًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٢ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٣ فَلَوْ كَانِ الْتَبَخَّرُ مَدَامَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي لَتَبَعَدَ الْتَبَخَّرُ فَبَلَّ أَنْ تَبَعَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَامَ ۝١٠٤ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوجِي إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّي فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّي ۚ أَحَدًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: 102 - 105].

الشرح:

الْعَزْدَوِي: وسط الجنة وأفضلها وأعلاها.

لَا يَبْغُونَ: لا يحبون ولا يرضون.

مَدَدًا: حبرا للكتابة به.

يَرْجُوا: يومن ويوقن.

استخلاص مضامين الآيات:

1 - ماذا أعد الله للمؤمنين يوم لقائه؟

2 - ما المثال الذي قدمه الله لبيان سعة كلماته؟

3 - ما الذي ينفع الإنسان يوم لقاء ربه؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: جزاء المؤمنين العاملين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْغَيْرَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْغَزْدَوِيِّ نَزْلًا ۝١٠٢ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾. وورد في فضل هذه الآيات من ختام سورة الكهف ما رواه مسلم: «من حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف عُصِمَ من الدجال» [رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث 809] وفي سنن أبي داود: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ». [سنن أبي داود: كتاب الملاحم - باب خروج الدجال، حديث 3767].

وقد ذكر الله تعالى هنا جزاء المؤمنين المصدقين بآيات الله ورسله، العاملين بهداه ووحيه، في مقابل ما تقدم من ذكره لجزاء الأخسرين أعمالا الكافرين المستهزئين، ليظهر التباين، وفي هذا بعث النفوس على اتباع الحسن القويم. وتلك طريقة القرآن الكريم في تنبيه القصص والعبر بأحوال

هؤلاء وهؤلاء على سبيل المقابلة بينها؛ ولذلك - كما قيل - سماه الله «مثنائي»، في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانًى﴾ [الزمر: 22]، وقال: ﴿وَلَفَدَ- اِتِّتَكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّمَانِي وَالْفُرْعَانِ الْعَصِيمِ﴾ [الحجر: 87].

قال الطبري رحمه الله في تأويل الآية: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقْرَأُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ كُتُبِهِ، وَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ، كَانَتْ لَهُمْ بَسَاتِينُ الْفِرْدَوْسِ، وَالْفِرْدَوْسُ: مُعْظَمُ الْجَنَّةِ». [جامع البيان: 16 / 37].

وورد في تفسير الفردوس وصفاتها أحاديث صحيحة، منها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَالْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا». [سنن الترمذي: كتاب التفسير - باب: ومن سورة المومنون، حديث 3174]. وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». [صحيح البخاري: كتاب التوحيد - باب وكان عرشه على الماء...، حديث 6987]. وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ: ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِئَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِئَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ». [الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني: باب سوق الجنة وصفة نسائها وغناء الحور العين فيها، 24 / 192].

وقيل: الفردوس سرّة الجنة. وَعَنْ كَعْبٍ قَالَ: لَيْسَ فِي الْجَنَانِ جَنَّةٌ أَعْلَى مِنْ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ، وَفِيهَا الْأَمْزُونُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّاهُونُ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَقِيلَ الْفِرْدَوْسُ: الْبُسْتَانُ بِالرُّومِيَّةِ. [جامع البيان: 15 / 431 - 434]. وقيل: بالسريانية. وقال الفراء: هُوَ عَرَبِيٌّ. ويجمع على فراديس.

وقوله: ﴿نُزِّلًا﴾ تقدم معناها في الدرس السابق. وقوله: ﴿حَلَالِينَ وَيَقَالُ لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي: دائمين فيها لا يريدون عنها تحولا أو انتقالا، ولا يختارون عليها غيرها أو يحبون سواها. و«الحول» مصدر حال يحول، مثل: صغر صغرا وكبر كبرا وعاج عوجا. قال أبو حيان: «يَعْنِي لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا حَتَّى تُتَازَرَ عَنْهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى أَجْمَعَ لِأَغْرَاضِهِمْ وَأَمَانِيهِمْ، وَهَذِهِ غَايَةُ الْوَصْفِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي

الدُّنْيَا فِي أَيِّ نَعِيمٍ كَانَ فَهُوَ طَامِحُ الطَّرْفِ إِلَى أَرْفَعِ مِنْهُ». [البحر المحيط: 7 / 232 - 233].

ثانياً: سعة كلمات الله وعدم نفادها:

قال تعالى ضارباً المثل لكلماته الخالدة التي لا حصر لها ولا نهاية تنتهي عندها: ﴿فَلْتَوَكَّنِ الْبَحْرُ مَدَادَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي لَتَبْعِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَبْعِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ﴿لَتَوَكَّنِ الْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر، ﴿مَدَدًا﴾ هو ما تمدُّ به الدَّوَةُ مِنَ الْحَبْرِ. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَفْلَاحٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَبِغَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 26]. وقوله: ﴿لَتَكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: معد لكتابتها. وكلمات الله هي علمه وحكمته، لو كُتِبَ بِذَلِكَ الْمِدَادِ ﴿لَتَبْعِدَ الْبَحْرُ﴾ «نفد» بدال مهملة بمعنى نضب ماؤه وجف وانتهى وانقضى.

والآية معلمة باتساع معلومات الله عز وجل، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكير، فعبّر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه، وهو قوله: ﴿فَلْتَوَكَّنِ الْبَحْرُ مَدَادَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، و«الكلمات»: هي المعاني القائمة بالنفوس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه لا تنتاهي، والبحر متناه ضرورة.

وقراءة الجمهور: ﴿مَدَادَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والأعمش ومجاهد والأعرج والحسن «مدداً لكلمات ربي» بفتح الميم والدال بغير ألف.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ تَبْعِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أَنْ يَبْعِدَ﴾ بالياء، أي: الكلام، وقرأ باقي السبعة ﴿تَبْعِدَ﴾ بالتاء، أي: الكلمات، والمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: ولو أضفنا إليه وزدنا عليه بحراً مثله.

وقرأ الجمهور ﴿بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ بفتح الميم والدال بغير ألف، وقرأ الأعرج بكسر الميم، وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والأعمش بخلاف وابن محيصن والحسن في رواية، وأبو عمرو في رواية وحفص في رواية «بمثله مداداً» بألف بين الدالين وكسر الميم. وانتصب ﴿مَدَدًا﴾ على التمييز.

والمعنى: لو كان البحر مداداً تكتب به معلومات الله عز وجل، لنفد قبل أن يستوفيهما، وهو جواب منه تعالى للمعترضين على نبيه بأنه لو كان نبياً للأمم جميعاً ما خفي عنه الجواب عن

حقيقة الروح. أي: لَيْسَ بَبْدُعِ أَنْ أَجْهَلَ شَيْئًا مِنْ مَعْلُومَاتِهِ، ومنها الروح. وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ لَمْ أَعْلَمْ إِلَّا مَا أُوحِيَ إِلَيَّ بِهِ وَأَعْلَمْتُ.

ثالثا: توحيد الله والعمل الصالح:

وقوله: ﴿فَلِإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْفُكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أمر الله نبيه أن يذكر خصومه من المشركين ببشريته، وأن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَنْتَهِي عِلْمِي إِلَىٰ حَيْثُ يُوحَىٰ إِلَيَّ، وأهم ما يوحى إليَّ ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْفُكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، وهذا كقوله: ﴿فَلِإِنَّمَا أَنْتُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: 45] وخص هذا الجانب مما أوحى إليه؛ لأن كفرهم كان بعبادتهم للأصنام مع الله تعالى.

ثم أخذ في الموعظة العامة للخلق ووصيتهم بما هو مناط نجاتهم يوم لقاء ربهم فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فدعاهم إلى توحيدِهِ بالعبادة وإفراده بها دون إشراك أحد معه فيها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: نَزَلَتْ فِي جُنْدُبِ بْنِ زُهَيْرٍ الْعَامِرِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْمَلُ الْعَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ سَرَّنِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَلَا يَقْبَلُ مَا شُورِكَ فِيهِ» فَنَزَلَتْ الْآيَةُ. [الجامع لأحكام القرآن: 11 / 69]. ومعنى ﴿يَرْجُوا﴾ يؤمن ويوقن، وقيل: يطمع، و﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ أَيْ: حُسْنَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وقيل: يخاف، والتقدير: يخاف سوء لقاء ربه.

وعبر بالرجاء على جهة الإطماع وبسط النفوس إلى إحسان الله تعالى، أي: فَمَنْ كَانَ يَرْجُو النعيم المؤبد من ربه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا.

قال الماوردي رحمه الله في معنى ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾: «فيه ثلاثة أوجه: أحدها: يعني: فمن كان يخاف لقاء ربه، قاله مقاتل وقطرب. الثاني: من كان يأمل لقاء ربه. الثالث: من كان يصدق بقاء ربه، قاله الكلبي. وفي لقاء ربه وجهان: أحدهما: معناه لقاء ثواب ربه، قاله سعيد بن جبیر. الثاني: من كان يرجو لقاء ربه إقراراً منه بالبعث إليه والوقوف بين يديه». [تفسير الماوردي: النكت والعيون: 3 / 350].

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، الباء في قوله: ﴿بِعِبَادَةِ﴾ بمعنى «في» الظرفية، وهي دعوة إلى أن يكون عمل المؤمن خالصا على سنة رسول الله ﷺ، وهذان هما ركننا العمل المتقبل عند الله تعالى: الإخلاص فيه لله تعالى، وموافقته للسنة. فهما إخلاصان: إخلاص في النية لله، وإخلاص في المتابعة لرسول الله ﷺ.

وروي عن سفيان الثوري وابن جبير ومجاهد: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: لَا يُرَائِي. قَالَ الْمَوْرِدِيُّ رحمه الله: «وَقَالَ جَمِيعُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إِنَّهُ لَا يُرَائِي بِعَمَلِهِ أَحَدًا». [تفسير الماوردي: (النكت والعيون): 3 / 350].

وروى الحاكم في مستدركه بسنده إلى طاوس بن كيسان قال: «قال رجل: يانبي الله، إني أقف المواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني، قال: فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿بِمَرَكَايَ تَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّي، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾». [المستدرک على الصحيحين: كتاب الرقاق - باب من تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك، حديث 8009].

رابعاً: لطائف وفوائد:

- بين قوله تعالى: ﴿مَدَّآآ﴾ وقوله: ﴿مَدَّآآ﴾ جناس، وهو المسمى بجناس الاشتقاق، وهو أن يكون للفظين أصل واحد في اللغة، وإن اختلفا في الحركات.
- يدل قوله تعالى: ﴿فَلْتَوْكَايَ اتَّبِعْ مَدَّآآ...﴾ الآية، أن لكلمات الله تعالى أسراراً لا تحيط بها العبارات، ولا تحدها الأقلام، ولا تنفد عطاءاتها، فكلما أقبل عليها المؤمن انكشفت له عجائب يتزود بها في تقوية صلته بالله وتزكية نفسه.
- أرشدت آيات الدرس إلى قيمتي التوحيد والإخلاص في العمل، وعدم الوقوع في الشرك الجلي، كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، والشرك الخفي، كما فعل أهل الرياء ممن يطلبون بعملهم الدنيا، وهو الشرك الأصغر، كما صح في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله - عز وجل - لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!». [مسند الإمام أحمد: 5 / 428 - 429].

التقويم

- 1 - ما معنى قوله تعالى: «بِمَرْكَبٍ يُرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ»؟
- 2 - لماذا ضرب الله المثل لسعة كلماته؟ وما سبب ذلك؟
- 3 - بم يستعد المؤمن للقاء ربه؟

الاستثمار

ورد في سورة الكهف شروط قبول العمل عند الله تعالى في الدنيا والآخرة

أستقرئ الآيات الدالة على ذلك ثم أبين ما يأتي :

1 - شروط قبول العمل عند الله تعالى؟

2 - أسباب خسران العمل؟

3 - ثمرات إحسان العمل وإتقانه.

الإعداد القبلي

أراجع دروسي السابقة، وأتعاون مع أصدقائي في إنجاز أنشطة التثبيت والدعم.